2- القرآن والشعر

لقد وجهت الآيات الثلاث ما قبل الآية الأخيرة من سورة " الشعراء " في القرآن الكريم ضربة صادمة للشعر والشعراء في آن واحد. وكادت أن تقطع شريان الشعر نهائيا ، وهو الكنز الأدبي واللغوي الأكبر الذي يعد أحد أهم معالم الثقافة العربية قبل الإسلام ( وبعده وإلى يومنا هذا). ويعد أيضاً من مصادر المعرفة المهمة عن تاريخ العرب السياسي والثقافي والاجتماعي وعمَا تبقى من صُعُد. وقد حقق شوقي ضيف هذا النوع من المعرفة عن عرب ما قبل الإسلام حين شرح أحوالهم الاجتماعية وثقافاتهم وعاداتهم وتاريخهم من خلال أشعارهم. بل وسمي بـ" ديوان العرب" لهذه الأسباب ( ). ويؤكد وعي النقاد العرب لهذه الحقيقة ما قاله ابن قتيبة عن الشعر: " الشعر معدن علم العرب ، وسفر حكمتها ، وديوان أخبارها ، ومستودع أيامها ، والسور المضروب على مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل يوم النفار ، والحجة القاطعة عند الخصام ، ومن لم يقم عندهم على شرفه ما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة، والفعال الحميدة ، بيتٌ منه شذت مساعيه ، وإن كانت مشهورة ، ودرست على مرور الأيام ، وإن كانت جساما ، ومن قيدها بقوافي الشعر ، وأوثقها بأوزانه ، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف ، أخلدها الدهر ، وأخلصها من الجحد ، ودفع عنها كيد العدو ، وغض عين الحسود"( ). أقول: كادت هذه الآيات أن تقطع دابر الشعر والشعراء لولا الآية التي تلتهن والتي بها اختتم القرآن السورة مستثنياً فيها بعض الشعراء. وقصة هذه الآيات وردت في مصنفات ( أسباب النزول ) إذ أن رجلين على عهد رسول الله ص تهاجيا ، أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل منهما غواةُ من قومه وهم السفهاء فأنزل الله:" والشعراء يتبعهم الغاوون "( ).

تقول الآيات:- وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ (226) . في حين أن آية الاستثناء عن هذا النقد اللاذع - والذي يقترب من حد التكفير- شملت شعراء محددين بعد أن جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك فقالوا يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء هلكنا (12) فأنزل الله الآية التي هي : إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) ( ).

ومنذ ذلك الحين قال الشعر وكتبه ونقله مؤمنون دافعوا به عن الرسول ﷺ وعن الإسلام وعقائده ومقدساته. بل تحول الشعر ، في أيام الرسول ﷺ سلاحاً بيد المسلمين يصارعون به شعراء الكفر والمشركين والأقوام الأخرى التي ناصبته ص ودعوته العداء.

وفضلاً عن النص القرآني وأحاديث النبي ص كانت أشعار الشعراء المسلمين تنتشر بسرعة ويتناقلها الرواة خاصة تلك التي تتعلق بنشر الدين وأفكاره ومبادئه. فمن الطبيعي إذن أن يتأثر الشعراء ، لا سيما المقربون منهم من الرسول وأصحابه ، بلغة القرآن ومفرداته وتراكيبه وصوره وقصصه فصار الشعراء يبشرون بالقرآن أيضا وينقلون أفكاره وحكمه ومضامين آياته.

لكن ونحن في صدد العلاقة بين القرآن والشعر علينا ملاحظة أن القرآن الكريم قد حرص مراراً على دفع تهمة الشعر عن آياته وصفة الشاعر عن الرسول ﷺ. ولنستعرض أولاً الآيات المقصودة ، ولنحاول تفهم أبعادها:

1- " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر" سورة الأنبياء الآية 5 .

2- جاء في سورة يس " وما علمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلَّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين " الآية 69.

3- وفي سورة الحاقة " وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون" الآية 41.

فالقرآن الكريم في هذه الآيات يُجبُّ عن نصوصه الكريمة صفة الشعر ويبعد عن الرسول ﷺ صفة الشاعر ليس حطّاً من قيمة الشعر بل لتأكيد أن القرآن ليس شعراً وأن الرسول ليس شاعراً. ولقد قال طه حسين أن القرآن ليس شعرا ولا نثرا إنما هو قرآن( ). وأن يبعد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن آياته صفة الشعر وعن رسوله ص صفة الشاعر لا يعني ذلك تحريماً للشعر ولا حتى تأسيساً لموقف سلبي منه ، إنما هو إقرار حقيقة يجهلها المشركون الذين كانوا يهاجمون الرسول وكتاب الله كي يبعدوا عنهما قدرهما الكبير ويضعفون مكانتهما ومن ثمَّ تأثيرهما في المجتمع. ولعلهم ينطلقون من صورة الشاعر في المجتمع العربي قبل الإسلام إذ أن أغلب الشعراء كانوا يدَّعون ملازمة الجن أو الشياطين لهم تلهمهم الشعر. فإن اعتراف العرب " بهذه القوة موجودة ولكن اهتمامهم بالتحدث عن طبيعتها قليل. وقد قرنوها منذ القديم بالشيطان وتصوروها نوعا من الإلهام" حتى أن الفرزدق - وهو شاعر أموي – صرح بأنه كان صديقا لإبليس وابنه. ورد أبو النجم فحولة شعره إلى أن شيطانه ذكر في حين شيطان خصمه أنثى( ). وكانت وظيفة الشاعر آنذاك الدفاع عن قبيلته مهاجماً أعداءها بالنقد اللاذع وفي كثير من المرات بالتعرض لكراماتهم وشرفهم وأنسابهم. والهجاء في الجاهلية " كان لا يزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا" ,و اللسان " كان ينكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح"( ). وإذا تغزل الشعراء فالكثير منهم جاء شعره غير محتشم ، وفقا للمعايير الإسلامية، ومخدشا للحياء " وتراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها. ولا يكادون يتركون شيئا فيها دون وصف له. إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها"( ). على العكس من هذا كله. فالرسول ﷺ يتلقى الرسالة السماوية علي يد جبريل ليبلغها للناس. وهذه العملية كلها تسمى بالوحي. والأغراض الشعرية العديدة التي امتلأ بها شعر ما قبل الإسلام يخلو منها القرآن تماماً. ولعل خير من نزه القرآن الكريم والرسول من صفة الشعر من علماء العرب القدامى هو السيوطي إذ يشرح شروط الشعر من جوانبه الفنية ومن حيث المحتوى وأخرى أخلاقية فلا يجد فيها ما يجمع الشعر بالقرآن الكريم ولا الشاعر بالرسول ﷺ. والشاعر إذا هزل أضحك وإن جد كذب. فالشاعر إذن بين كذب وإضحاك، وعن هاتين الخصلتين قد نزه الله نبيه ص وعن كل أمر دني. وإذا كان الشاعر مادحاَ ضارعاً أو هاجياً ذا قذع فإن هذه الأوصاف لا تصلح لنبي. ولعل الجانب الفني في كلام السيوطي يرقى إلى النقد المقارن عالي المستوى. فهو يشير إلى أن أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع ، إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة ، ولما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع والإيقاع بالحروف فهو ضربٌ من الملاهي لن يصلح ذلك للرسولﷺ ( ). .وتشير الدكتورة ابتسام مرهون الصفار إلى تعليل يقترحه بعض الباحثين لقضية تنزيه الرسول ﷺ عن الشعر في أن العرب " شأنهم في ذلك شأن الشعوب الأخرى في نظرتهم إلى الأدباء والفنانين كانوا يظنون بعقول الشعراء فيعتقدون الظنون أن بهم ما يشبه الجنون" وتستشهد بالآية الخامسة من سورة الأنبياء: " ويقولون أئنا لتاركوا ءألهتنا لشاعر مجنون". وتستطرد لتذكر أمر ارتباط الشاعر القديم بموضوع الشياطين الذين يوحون إليه الشعر وبعض ما قد عرفوا به من مسلك خلقي يتسم بكثير من الإسراف واللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر وغير ذلك( ).

والحقيقة أن نظرة موضوعية لكل هذه التفسيرات تجعلنا متحفظين عما جاء فيها من تبريرات. فالقرآن الكريم هو قرآن ولا يحتاج للبرهنة على اختلافه عن الشعر وما كانت هناك أية محاولات قرآنية للإشارة إلى صورة سيئة للشاعر عند العرب قبل الإسلام أو للحطّ من مكانته أو مكانة الشعر. بل إن كل ما أراده الكتاب الكريم في آياته الكريمة هذه هو أن يردّ على تخرص بعض المشركين في تسمية الرسول ﷺ شاعراً. فإذا كان هو كذلك فإن القرآن هو شعر يقوله الرسول وبالتالي تنتفي عنه فكرة الوحي ومن ثم مصدره الإلهي ورسالته المقدسة. إذن القرآن في موقفه هذا يدافع عن القضية برمتها لا بأجزائها. لكن تجزئة الموضوع ربما تجعله متفهماً أكثر إذ سوف تيسر عملية تلقيه من الآخر.

وإصراراً من المفكرين العرب المسلمين ( القدامى والمحدثين ) على تنزيه القرآن من أية صلة بالشعر والشعراء، ومن أي نشاط بشري، فقد طرحوا في كتاباتهم القديمة قضية "الإعجاز القرآني" ، مثلما توصلوا في كتاباتهم الحديثة إلى تعريف أن القرآن ليس شعرا ولا نثراً "فنياً" بل هو قرآن وحسب كما ذكرنا آنفاً. والإعجاز القرآني نظرية لغوية المراد منها الوصول إلى حقيقة تفوّق النص القرآني على أي نص آخر مهما كان مصدره( ). وفي هذا الصدد هناك إشكاليتان تظهران فور تناولنا لهذه القضية. الأولى تتعلق بتوحيد لغة العرب وانتصار لهجة قريش. ترى أسادت لغة قريش لغةً موحدةً في كل الجزيرة بفضل نزول القرآن الكريم أم أنها توحدت قبل ذلك بفضل الشعر العربي والشعراء العرب وأمامنا المعلقات الشهيرة التي تؤكد كل المصادر تقريبا على أنها كانت قد علقت على جدران الكعبة في مكة مركز قريش وهي لشعراء ينحدرون من قبائل مختلفة. ومع المعلقات لدينا شعر الصعاليك وشعر كثير آخر مفهوم ومتداول من قبل كل العرب والرواة. والثانية هي قضية اعتبار علم اللغة والتعمق بالبلاغة وشروط الفصاحة واجباً دينياً شرعياَ لتفهم آيات القرآن الكريم.

وحسماً للإشكالية الأولى نرى أن الشعر العربي قبل الإسلام كان قد مهّد تمهيدا واسعاَ لتوحيد لغة العرب ووضع الأسس الراسخة لها وحين جاء القرآن في مكة ومن ثم في المدينة وانتشر في الجزيرة أعلن انتصار لغته التي هي في الأساس لغة ترفعت عن عيوب اللهجات وتنزهت مبتعدةً عن المحلية والقبلية وغدت لغة العرب جميعا بالرغم من دخول مفردات عديدة من أصول أخرى سميت فيما بعد بـ " غريب القرآن "( ).

أما القضيّة الثانية فقد تبناها المسلمون في صراعهم الثقافي والفكري ضد المشركين الذين اشرنا في آنف الكلام إلى تهمهم الموجهة للنبي ﷺ أنه شاعر وللقرآن الكريم على أنه شعر. والإعجاز، بدأ القرآن الكريم نفسه بطرحه وتلقفه المسلمون ليتحول من التحدي الديني إلى التحدي الفكري واللغوي:

" وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة 23 ) ; " قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" ( سور الإسراء 88 ) ; " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (يونس 38).

هذه الآيات جاءت بمقاصد لغوية وبلاغية – إلى جانب الدينية – ينطوي عليها النص القرآني الذي صار مقدساُ ونموذجاً أدبياً وبلاغياً يتفوق على كل النصوص الأخرى, فاستقرت في الثقافة العربية الإسلامية مفاهيم التفرد والتفوق والإعجاز القرآني التي أسست لدراسات رصينة تعلقت بهذا الأمر. فهذا ياقوت الحموي يذكر في معجم الأدباء أن " علم العربية هو الدين ذاته"( ).

إن قضية الإعجاز اللغوي للقرآن فتحت الباب لالتزام ديني جديد وهام جدا هو تعلم اللغة العربية من القرآن الكريم نفسه ، والاعتزاز بها حتى ترسخت لدينا نحن العرب المسلمين قناعة أن لغتنا العربية مقدسة وأنها تفوق كل اللغات ، كما يقول الجاحظ وابن قتيبة من بعده( ).

وعوداً على بدء فإن قراءة الآيات القرآنية الكريمة الصادمة والاستثناء سويةً لنفهم منها: أن القرآن الكريم " لم يتحدث فيها عن الشعر من حيث هو فن من القول يجوز للمسلم أن يتعاطاه أو يحرم ذلك عليه ، إنما أورد لفظة الشعر أو الشاعر للتعريف بنفسه ، وللتفريق بينه وبين الشعر فحسب"( ). وفي هذه الآيات يضع القرآن الكريم شروطاً للشعر والشعراء، إذ تنشطر الآيات إلى شطر لمحاربة نهج الأهواء والغرائز والانفعالات غير المنضبطة والأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها( ). وفي تفسير هذا الشطر أيضا والتعليق عليه ذهب الحسن البصري إلى أننا: " قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها ، مرة في شتيمة فلان وفي مديحه مرة أخرى"( ). وقال قتادة " الشاعر يمدح قوماً ويذم قوماً بباطل " ,انهم يقولون ما لا يفعلون فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر عنهم فيتكثرون بما ليس لهم. ويضيف سامي مكي العاني " يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون في ملتهم الغاوون الضالون عن سنن الحق ، الحائرون فيما يأتون ويذرون ، ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال ، وأنهم في لغو يخوضون " ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون" وفي كل فنٍّ ينظمون ، وهم يعملون خيالهم في كل الموضوعات بدون تمييز"( ).

وعندما نتوقف عند الشطر الثاني من الآيات سيتضح لنا: أن القرآن الكريم لم يرفض الشعر كله بل وضع شروطاً كي يغدو أكثر ملاءمة للروح والثقافة والوعي الإسلامي. وأن القرآن في هذه الآيات الكريمة قد باشر في شق الشعر والشعراء إلى شقين: هؤلاء الذين " في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون "من جهة وهؤلاء " الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا " من جهة أخرى. ولم يكن الرسول ولا سلطة الإسلام لتفرض رؤاها للشعر كما جاءت آنفاً إلا على الشعراء المسلمين الذين آمنوا والتزموا بمبادئ الإسلام الثقافية والأدبية ولم تكن لتفرضها على الجميع بدون استثناء وإن اعتنقوا الإسلام مثل الحطيئة ومتمم الوارد ذكرهما فيما تقدم. لكن هذا لا يعني أن تترك لهم حرية القول دونما ضوابط ثقافية وأدبية التزم بها المجتمع الإسلامي. وقصة الحطيئة مع الزبرقان وموقف عمر بن الخطاب منه معروفة( ).

وهنا تخطر فوراً على الذهن قضية أخرى ذات أهمية ليست قليلة. هل فعلا ضعف الشعر العربي بسبب الحكم الإسلامي وسطوة العقيدة ؟ نباشر بالقول أن ما طرأ على الشعر هو أنه تغير. تغيرت أغراضه من داخلها كما تغيرت الرؤى الشعرية وتغيرت حتى الأشكال. فلقد رفض الإسلام الهجاء الجاهلي القائم على الشتيمة واللاذع من القول وحصره بتبيان معايب السلوك وخطل رؤى المشركين ووعيدهم بالنار وعسير الحساب يوم القيامة ، أنظر في ذلك هجاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة للمشركين, تغير أيضا المديح الذي كان ينصب على الملوك والقادة وإضفاء ما ليس فيهم على شخوصهم إلى أن يمدح الشاعر الإسلامي محمداً ص والمجتمع الإسلامي الجديد والقيم الجديدة. راح الشعراء المسلمون يبشرون بعقيدتهم الجديدة ويدعون إلى الإسلام ونصرة دينهم الجديد وهذا النوع من الأغراض لم يكن موجودا سابقا. وإذا كانت الرؤى تقوم على أساس الرحيل والحنين والبكاء على الأطلال والاغتراب ومكابدة الوحدة أصبحت اليوم تتعلق بالإيمان بالله وبرسالة محمد ﷺ وبالعقيدة الإسلامية وما يرتبط بها. وإذا كانت القصيدة الواحدة قبل الإسلام تتنقل من غرض إلى آخر مما انعكس على تنوع بنائها وتعدد مقاطعها وصورها المختلفة فهي في العصر الإسلامي تمتاز بالوحدة الموضوعية الأمر الذي أدى إلى اتسامها بالحبكة كما هو الحال في قصائد شعراء الرسول الذين سنتوقف عندهم لاحقاً.